

مستوى ذكاء الشرقيين وينبع عدد المنعنين اليوم نحو مائتي مليون فإذا كانت النصرانية دين أمة الشمال فلإسلام دين شعوب الجنوب.

المنكة البيزنطية

المنكة البيزنطية - كاد البربر الذين أغاروا على بلاد الإمبراطورية الرومانية يوجهون وجهتهم إلاً قليلاً قبل المغرب ولذا بقي في القسطنطينية إمبراطور يحكم الشرق كند. وبقي قرنان (الخامس والسادس) والإمبراطورية الرومانية محتفة بعد نصف مئكتها القديمة على الأقل وحكها نافذ في آسيا الصغرى وسورية ومصر وفي جميع البلاد الواقعة شرق البحر الإدرياتيكي حتى لقد خضعت لها إيطاليا وأفريقية وشر من إسبانيا بضع منين ثم هاجمها المهاجمون فاغتصب منها السلافون إيبيريا وجنوب بلاد البنقان واقتطع منها العرب جميع أفريقية وسورية وجزءاً من آسيا ولم يبق لها سوى قطعتين على جانبي مدينة القسطنطينية في الغرب تراسيا (روم إيني) وفي الشرق آسيا الصغرى. بيد أن العاصمة أيضاً قاومت هجمات المهاجمين العرب وفي ذلك الحى الأمين احتفظت الإمبراطورية الشرقية بألقابها الضخمة وحكومته المطنقة وإدارتها المعتادة. وظنت على هذا النحو إلى أن استولى العثمانيون على القسطنطينية (١٤٥٣) وهذه الإمبراطورية التي أصبحت قرى بيزنطية هي التي نسيها الإمبراطورية البيزنطية.

يوسيتيانوس - لأن كان منصب الإمبراطور وراثياً فإنه لم يبق في الإمبراطورية الشرقية أسرة مالكة فإن دسائس القصر وثرات عامة القسطنطينية لم تكد تمكن الإمبراطور إلا في الندر من نقل سطة إلى أسلافه فكان معظم الأباطرة مفتصين لنسب. وأشهرهم يوسيتيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) وهو ابن فلاح في ولايات الدانوب كان يرعى الغنم في طفولته دخل خاله يوسن بعد رعاية الغنم في الجندية ومازال يتنقل من رتبة إلى أخرى

حتى غدى توثورن (قائد حرس القيصر) تم إمبراطوراً واستدعى إلى القسطنطينية يومستيانوس الذي اشتهر ببذله المال لتجند وتثنيه الملاعب أمام العامة فنودي به إمبراطوراً عقب وفاة خالد.

ومن شأن يوستينوس أن يبحث عن كل ما يزيد في إعجابه فتوفر على الشهرة بفتح البلاد وإنشاء المعاهد والمصانع وتقسيم القوانين فأراد أن يكون فاتحاً عمرانياً مشرعاً. وإذا كان غير صالح لنحرب عهد إلى صديقه بنيزير أن يفتح البلاد باسمه وكان للإمبراطورية إذ ذاك عدوان أحدهما من الشرق وهي مملكة فارس الحربية والآخر من الغرب وهي الممالك التي أسسها البرابرة الجرمانيون في ولايات الإمبراطورية القديمة وكان منك الفرس صاحب حول وطول جيشه قوي نظامه موطن الأركان ومنوك البربر ضعفاء أخذ البذخ مقاتلتهم بمقتهم الشعب الكاثوليكي لا نظام لهم ولا ترتيب. فكان يوستينوس من جهة الشرق يغرب ولم يستطع بنيزير غير الدفاع عن آسيا الصغرى وأن يعقد الصلح على شرط أن يدفع الجزية (٥٣٣) وفي آخر مدته (٥٦٢) وقع على عهد صلح جديدة تعهداً على أن يؤدي كل سنة ٣٠٠٠ ذهب وقد وفق بنيزير من جهة ممالك البربر كل التوفيق فافتتح مملكة الونداليين في أفريقية (٥٣٤) بحسنة واحدة ومملكة الأوستروغوت في إيطاليا بعد حرب ثمانية عشر سنة (٥٢٥) - (٥٣٣) وتغلب على جنوب إسبانيا أحدها من صاحبها أحد منوك ألويزغوت. فحق ليوستينوس أن يفاخر أنه وطد شطراً من الإمبراطورية الرومانية القديمة ولكن استيلاءه عليها لم يكن له من القوة ما يدفع به ما افتتحه من البلاد فلم يحم إيطاليا من غارة النومبارديين ولا أفريقية من العرب.

وتوفر يوستينيانوس وهو البناء العمراني عني أن يدافع عن الإمبراطورية بحصون أقامها
 ويزين القسطنطينية بمصانع ومشاهد وحتى لا ينسى الأعقاب ما قام به من جلال
 الأعمال كتب يصف كل ما بناه فكان ما بناه عني شاطئ الدانوب ٨٠ قلعة وفي
 ولايات أوروبا ٦٠٠ وأشأ السد الذي يحول الخنيج الذي قامت عنده مدينة
 القسطنطينية وخطاً من الحصون عني طول الفرات. وأهم هذه المصانع الكنية
 الكاتدرائية في القسطنطينية المعروفة بأيا صوفيا أجمل أعمال الهندسة البيزنطية (وهي
 باقية إلى اليوم جعلها العثمانيون جامعاً).

وقد عهد يوستينيانوس إلى الفقيه تريونين أن يجمع في مجموعتين جميع الشرائع والقوانين
 الفقهية فوفق يوستينيانوس بفتحده ومصانعه وقوانينه عني ما يجب أن ينال شهرة ما
 زالت متأثرة إلى اليوم ولن ينسى عهده وكانت أيام حكمه تعمة تزوج امرأة وضعة
 اسمها تيودورا كانت تدبر أمره حسب رغبته وهام جداً بالألعاب الفروسية وبالشعر حتى
 نسي الحكم فثار الرق وهبوا عاصنته خمسة أيام وأوشكوا يذبحونه فاضطهد أعداءه أبحا
 اضطهاد وأغلق مدرسة الفلسفة في أثينا واشتط عني الشعب في تقاضي الضرائب
 وغضب عني القائد بنيزير الذي افتح باسمه كل هذه الفتحاحات.

الأعمال التشريعية - إذا كان الأباطرة لم تبذل لهم الطاعة إلا في البلاد التي كان يتكنم
 فيها في اللغة اليونانية فقد ظلوا يكتبون عقودهم الرسمية باللاتينية وبقيت محاكم
 الإمبراطورية تحكم بالقانون الروماني ولكن لم يبقى في الإمبراطورية منذ القرن الثالث
 فقهاء قادرين أن يكنوا الحقوق كآتن يفتنوا بالزيادة عليها فكانوا يكتبون بترار
 تعاليم فقهاء القرن الثاني والقرن الثالث كايوس وأولين وبول وبابنين ومودستين. وقرر
 الأباطرة أيضاً أن يجري عمل القضاة في المستقبل في كل المسائل التي لم يسبق للقانون

أن قدر وقوعها فيسبح رأي هؤلاء الفقهاء العظام وإذا كان بينهم خلاف يجري على رأي الأكثرية وظنوا ينشرون الأوامر ويعتون إلى حكام الولايات أجوبة على مسائل في الحقوق تكون بمثابة قانون وله نفوذه وأحكامه. وقد ألفوا في القرن الخامس مجموعة من هذه الأوامر الإمبراطورية سموها القانون التيودوزي.

وصححت عزيمة يوستينيانوس على أن يجمع القانون الروماني برمته فعهد إلى تريبوتين أن يقتطف من أقوال جميع فقهاء الرومان ومن أعمال الأباطرة ما يتألف منه هذا العمل الذي عينت به لجنة من الفقهاء اشتغلت نحو عشرين سنة فألفت ثلاثة تآليف . وهي:

(1) مجموعة الفتاوى (بندكيت) مستخرجة من أفواه زهاء خمسمائة فقيه روماني من عصور مختلفة وتقسّم إلى خمسين كتاباً .

(2) قانون يوستينيانوس وهو مجموع الأوامر والتقاليد الصادرة عن الأباطرة منذ عهد قسطنطين .

(3) كتاب الأحكام وهو سفر في الحقوق ألف للنظية.

ثم أن يوستينيانوس جمع في كتاب سماه السنن عامة الأوامر الصادرة في عصره وحظر أن يذكر اسم أحد من فقهاء الرومان بعد ذلك وبهذا بطل استعمال الكتب القديمة في الفقه الروماني في الخاكم فصاعت إلا قليلاً ونحن اليوم قلنا نعرف شيئاً في الحقوق الرومانية إلا ما كان من قطع في مجلد يوستينيانوس ومن أجل هذا طارت شهرة هذه المصنفات.

القيصرية والشعب - أصبحت المنكحة البيزنطية مع الزمن أشبه بحكومة مطلقة شرقية والإمبراطور سيدهما يأمر بقتل كل من ينالهم غضبه ويصادر الأموال كمن شاء هواد وله السلطة الدينية نصب الأساقفة ويعزلهم ويتحكم في المعتقدات ويضطهد المخالفين.

ويحفظ به كبار الضباط والموظفون والخدم فيتألف منهم بلاط ذو أهمة ويكون لكل من الداخلين فيه رتبة شرف ويقدر كل شيء فيه برسوم دقيقة والقصر يستغرق جميع الأموال التي تجيء من البلاد ولا يذكر في الإمبراطورية غير الإمبراطور وتنقضي الحياة في القصر غنى معالجة دساتير النساء وبطان الإمبراطور وفي المؤامرات. فمن ١٠٩ أباطرة تعاقبوا الحكم من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر ٣٤ فقط ماتوا حفا أنوفهم غنى سرورهم ٢ تنازلوا و ١٨ ماتوا في السجن و ١٨ جدعت أنوفهم وقطعت أيديهم و ٢٠ خنقوا أو سحوا. وتندر أن خنق الإمبراطور ابنه وكل إنسان حتى الخادم والعسيف تحدثه نفسه في الوصول إلى العرش فقد كان الإمبراطور ناستازا رئيس الحجب وجوستين رعى الخنازير وفوكاس جندياً بالعرض وكثيراً ما كان يحدث لبعض المشركين أن يتنبأ له بعض العجائز فتصح عزائهم غنى تدبير المؤامرات ليصبحوا أباطرة. ويروى أن بازدانوس بينما كان غنى وشك الانتقاض دله أحد الكهنة غنى خدمته الثلاثة الذين كانوا يأتونه بقرسه قاتلاً له إن هذين الاثنين يبايعان بالملك وهذا يبايع ثم يقتل. وهؤلاء الخدم الثلاثة هم ليون الخامس وميشيل الثاني وتوماس الغاصب ولذا كان سلاح الإمبراطور في الدفاع عن نفسه التجمس والعذيب النيم فقد قطع فوكاس (٦٠٣ - ٦٨٠) أنسن أنصار سنقه وفقاً عيونهم وقطع أيديهم وأرجلهم وكان الإمبراطور يضربهم بالسهام أو يحرقهم بالنار وكثيراً ما كانت تجري هذه العقوبات الشديدة غنى رؤوس الأشهاد. وقد شهد الإمبراطور يوستينيانوس الثاني وهو مجدع الأنف مشهد الألعاب ورجلاه غنى رأس منافسه في العرش ثم أمر بهما فأعدما. ووضع باسيل أعداءه الخذومين المصنوبين في الساحة العامة قابضاً بيده مبخرة فيها

كبريت كان يبخر بها بعضهم بعضاً ثم اضطربهم ثلاثة أيام أن يشحدوا ويعولهم مفعوة
ويد كل منهم مقطوعة.

الجيش - لم تبق في الولايات سلطة غير سلطة الجيوش يجندون من المتشردين من أهل
كل بند يدرها عنهم الإمبراطور وفيهم الأروام والفرس والعرب والأرمن والصقالية
بل والفرنج والنورمانديون وكان معظمهم فرساناً لا يؤدون الضرائب ويمتكون أراضي
وقد دعاهم الصييون الفرنسيون في القرن الثالث عشر الفرسان والشرفاء وبطلت
طريقة الحكام المدنيين في الولايات وسط الحروب فكل قائد جيش يحكم على منطقة
ولايته وبعضهم يقطعون عن كل صنة عن العاصمة فيدفعون عن أنفسهم بحسب ما
يتراءى لهم فكانت مناطق كالإيرا وحقنة مثلاً مستقلة حقيقة.

الجامع - حفظت القسطنطينية خزائن كتب مملوءة بنفائس قديمة وكان فيها مدارس
يتخرج فيها كل من يطمعون في تولي المناصب ويقضى على الموظفين في الدولة
البيزنطية أن يكونوا أدباء كما هو شأن حكام الصين ويدرس الأساتذة من الكهنة إلا
قليلاً عنوم الدين والشريعة والرياضيات والنحو وكان بعضهم منسأً بجميع عنوم عصره
ولم يكن عنسأً بيزنطة يحاولون أن يأتوا بأعمال مبتكرة بل كانوا يسقطون على التأليف
القديمة فيقبسون منها ما يجمعونه في مصنفاتهم. فقد ألف فوتيوس في القرن التاسع كتاباً
سماه عشرة آلاف مصنف ووضع صيون المترجم وهو قائد سياسي من أهل القرن
العاشر

مجموعة واسعة في حياة القديسين وجمع الإمبراطور قسطنطين البورفيروجني مجموعاً
عظيماً. وكان البيزنطيون يرجون أن يصفوا في بضعة مصنفات شتات عامة علوم

القدماء وهو عمل متكبرين لا عمل عالمين ولكن عندهم حفظ شذوراً من أسفار ضائعة
قديمة.

الصنائع البيزنطية - ظنت الإمبراطورية البيزنطية خلال القرون الوسطى بأسرها تنسئ
كنائس وقصوراً وتزينها فكان المتفنون بالصناعات كثيراً عددهم ولاسيما في بلاط
بيزنطة وفي الأديار بين الكهنة والقسيسين. وأعظم الصناعات البيزنطية الهندسة وأهم
مصانعها كنيمة آيا صوفيا في القسطنطينية أنشئت عني عهد يوستينيانوس وحافظ
عنيها العثمانيون فحولوها جامعاً.

وتألف الكنييسة البيزنطية من قبة كبيرة وسطى فيها قباب صغرى يدخل منها النور
ويحيط بالقبة الكبرى عدة قباب أو نصف أقباب صغيرة وجميع هذه القباب مذهبة من
الخارج تتألق أنوارها إلى بعيد وفي الداخل ترى السواري من الرخام الشين كالصبا
والسماقي وكلها ذات خطوط حمر وخضر وأرضها مبنطة بالفسيفساء المتألقة والحوائط
مزدانة بصور مرصعة من ذهب. يريدون من هذا الفن إظهار الغنى. وغدت هذه
الكنائس ذات القباب المستديرة والمذهبة أمودجا للهندسين منذ القرن السادس إلى
القرن الحادي عشر لا في الإمبراطورية البيزنطية بل عند جميع البرابرة المسيحيين في
الشرق. وبقيت هذه البيع في الشرق مثال الهندسة النصرانية وجماع الكنائس الروسية
كنائس بيزنطة.

وما النقش والتصوير عني ما كان قديماً في مصر وآشور سوى صناعات ثانوية من شأنها
تزيين أعمال الهندسة وتمثل صور الجدران صفوفاً طويلاً من القديسين أو احتفالات
كهنوتية والأشخاص منفصلة عن التهذيب فيها جفاء وهي عني نسق واحد وعيونها
واسعة الأحداق وأجسامها مفرنة لا معنى لها ولا حياة فيها وكذلك تماثيل القديسين

ينتقد عليها ما ينتقد على صور الأشخاص وقد انقطع أرباب الصنائع عن صنع النقوش والتصوير والطبعة واكتفوا بنقل نموذجات مقررة مبعدين عن الحقيقة كلما أكثر النقل والاحتذاء.

حفظت في المنكة البيزنطية أيضاً جميع أعمال الزينة كالنقش على الخشب أو العاج وصناعة الحني والزمرد وتذهيب المخطوطات. ودام أرباب الصناعة من البيزنطيين مدة خمسة قرون من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر مستأثرين بصنع ما يحتاجه الملوك

والأساقفة ورؤساء الأديار من البربر في غاليا وجرمانيا يعملون لهم زين البيع وبيوت الذخائر والكؤوس والعروش واليجان والمخطوطات الشنيعة وكان إذ يخرج أناس في الصناعة ببلاد الغرب يبدئون باحتذاء مثال الكنائس البيزنطية.

كنيسة الشرق - لم تنشأ الكنائس النصرانية في الشرق أن تخضع للبابا في رومية بل كانت ترجع إلى أساقفة المدن الكبرى (القسطنطينية والقدس وأنطاكية والإسكندرية) يدعونهم بطاركة وفوقهم الإمبراطور رئيس الكنيسة وهو منك على الأجسام كما هو منك على الأرواح على نحو ما هو حال قيصر روسيا إلى اليوم بل هو المرجع في حسم المسائل الاعتقادية.

وقد أصدر زينون سنة ٤٨٢ في الجدل الذي ثار بشأن طبعي المسيح أمراً قاضياً على الفريقين أن يقبلوا بقانون عام وبعد مئة وخمسين سنة من هذا التاريخ والمسيحيون يتناقشون فيما إذا كانت لنسج طيعة واحدة أو طيعتان أصدر هيراكلوس سنة ٦٣٩ أمراً يقضي بأن لنسج طيعتين ولكن له إرادة واحدة فنشأت من ذلك بدعة جديدة وانقسمت كنيسة الشرق إلى عدة شيع فكان الناطرة يقولون بأن في المسيح

طبعين الأولى إلهية والثانية بشرية وأن العذراء ليست أم الله بل أم المسيح وأسوا الكنية الكلدانية نصبوا زعيها في بابل. وقال القاتنون بطبيعة واحدة في المسيح أن ليس فيه من الطباع إلا الطبيعة الإلهية وهؤلاء أسوا كنائس مصر وأرمينية ومورية (تحت اسم العاقبة) والقاتنون بطبيعة وحيدة في المسيح اعتقدوا بأن له طبيعتين وإرادة واحدة ولا يزال الموارنة في جبال لبنان يعتقدون اعتقادهم.

فتم تحفظ الكنية الأرثوذكسية في القسطنطينية بغير روم آسيا الصغرى وأوربا ولم يتيسر لها أن تظل بكنية الغرب والكنائس مختلفة في عدة مسائل فالغربيون لم يقبوا بزواج القسيس ولا بعبادة الصور وزادوا إلى هذه اللجنة التي قينت في مجمع نيقية الروح القدس منبثق من الأب قولهم ومن الابن أيضاً ولم يرض أحد الفريقين أن يتنازل عن دعواه ومنذ ذهاب الإمبراطور من رومية كان يعترف البابا وأساقفة إيطاليا بإمبراطور القسطنطينية عاجلاً عنهم ولكن لم يقبوا بأن تحكم الإمبراطورية في الكنيسة وأن نفض مسائل الإيمان والقوانين. وأصبحت الصلاة نادرة ومتعددة بين البابا والمشاركة ثم جاء إمبراطور من القاتنين بتحطيم الصور فأمر سنة ٧٢٨ بأن لا يكون في البيع أقل تمثيل من تمثيل المسيح بل ولا العذراء ولا القديسين وأن تحطم التماثيل وتعفى آثار الصور فحرض البابا جماعته المؤمنين أن يقاوموا هذا الفكر وشجب القاتنين بحطم الصور ولما غدا أحد منوك الإفرنج (شارلمان) إمبراطور على الغرب انقطعت كل صلة بين رومية والشرقيين.

ولم تنق الكنية الرومية محصورة في الإمبراطورية البيزنطية بل بعثت رسلاً لتصير البربر الصقالية في أوربا الشرقية كما نصر مراسم رومية برابرة الجرمان وفي أوربا الغربية فكما غدا الجرمان في ألمانيا وإنكثرا كاثوليكاً رومانين أصبح السلافيون (الصقالية) في

بنغاريًا وبنغاريا كاثوليكيًا روميين ومازال هؤلاء كذلك وتسمى الكنيسة الرومية (وهي تسمى نفسها الأرثوذكسية) وعدد الخاضعين لها نحو ٨٠ إلى ٩٠ مليونًا.

مكانة الإمبراطورية البيزنطية - جرت عادة المؤرخين عند كلامهم عن البيزنطيين أن يطبقوا عليهم عبارات الاحتقار. نعم إن روايات مؤرخيهم تشعر أن هناك شعبًا ظالمًا نذلًا فاسدًا ولكن لم يبق غيرهم باقين على شيء من مدينة بجانب الغرب الذي عاد فأصبح بربريًا فهم الذين حفظوا الحضارة القديمة ونقلوها إلى اسم أوروبا الحديثة وبذلك شغلوا مكانة عالية في تاريخ العالم المدن وإليك ما أتوه من الأفعال على سبيل الإيجاز:

١ - حفظوا من التشذيب القوانين الرومانية التي لا تزال في كثير من الموضوعات القاعدة التي تجري عليها الشعوب المدنة.

٢ - أنقذوا صناعات القديمة وكانت تضع آثار كتاب اليونان لولا المخطوطات التي حفظها أدباء القسطنطينية وكهنتها فالبيزنطيون كانوا خزنة كتب الجنس البشري

٣ - أنتشروا صورة عظمى من صور الصناعة وعلى الأقل في الهندسة ونعني بذلك الصناعة البيزنطية.

٤ - أسسوا كنيسة نصرانية نصرت العالم السلافي كنه تقريبًا.

٥ - قدمت الشعوب البربرية في أوروبا الشرقية مثالاً من أمثلة المدنية ولاسيما الروس فيأفهم طامًا أعجبوا بالبيزنطية واحتذوا مثالها وما البع الروسية إلا كتاس بيزنطية وألف باء اللغة الروسية مؤلفة من حروف يونانية والدين الروسي هو الكشكة الرومية حتى أن أسماء العباد يونانية (امكندر. ميخائيل. باسيل. حنة) وأخذ الشعب الروسي (وهو اليوم

يناهز المئة مليون نفس) دع عنك الصريين والبنفاريين عن بيزنطية كتابه وديانته وصناعاته. وعلى الجملة فقد كان البيزنطيون معلمي الصقالبة كما كان الرومان معلمي الجرمان.

مملكة العرب

الخلافة

الحنفاء - فتح الحارثيون العرب في أقل من قرن (٦٣٠ - ٧١٣) بلاد آسيا حتى بنفوا نهر السند وجميع أفريقية الشمالية وأسبانيا وخضعت البلاد التي فتحت للحنيفة زعيمهم أمير المؤمنين خليفة الرسول وأقام الخليفة أولاً في المدينة المنورة مدينة الرسول (٦٣٠ - ٦٦٠) ثم في دمشق (٦٦٠ - ٧٥٠) ثم في بغداد على عهد العباسيين وعند ذلك تجزأت المملكة فصار الحنفاء ثلاثة في ثلاث عواصم: بغداد في آسيا والقاهرة في أفريقية وقرطبة في إسبانيا دع عنك الولايات المنقطعة (مثل خراسان ومراكش) التي لم تكن تخضع لحنيفة قط.

والقاعدة أن ينتخب المؤمنون خليفة بإمام من الله. قال يزيد للناس عندما بويع له: أيها الناس إني أعاهدكم أن لا أقيم قصراً ولا أجمع من حطام الدنيا فإذا قتت بوعدي فعنيكم أن تبدلوا لي طاعتكم وتدافعوا عني بأنفسكم وإلا فأنتم في حل من بيعتي ولكن عليكم أن تذكروني أولاً فإذا صحت فاقبلوا معاذيري وإذا عرفتم برجل خير تم أخلاقه يقوم لكم بما أقوم فاختروه وأنا خاضع لده. وفي الواقع فإن انتخاب الخليفة كان حراً خالصاً فتختار الأمة الخلف الذي يعينه الخليفة السابق أو رؤساء القواد في قصر الخليفة.